

الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الـ16م-الاحتلال

الإسباني للمدن الساحلية الجزائرية نموذجاً

د/ لخضر بوطبة



جامعة محمد لمين دباغين- سطيف 02

الملخص:

عرف حوض البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر نزاعاً حاداً بين الشرق الإسلامي، بقيادة الإمبراطورية العثمانية من ناحية، والغرب المسيحي، بقيادة إسبانيا من الناحية الثانية، وشكل ساحل المغرب العربي بشكل عام والجزائر على وجه الخصوص مسرحاً حقيقياً لذلك الصراع، كما عرف الحوض غربي للبحر المتوسط مأساة المسلمين الأندلسيين الذين تعرضوا لأسوأ أشكال الظلم والاضطهاد على يد المسيحيين تحت قيادة مملكة إسبانيا، والتي عززت قوتها باتحاد مملكتي قشتالة وأراغون بزواج الملك فرديناند الكاثوليكي وإيزابيلا، وكان العثمانيون يسعون للحصول على موطأ قدم لهم في هذه المنطقة التي أصبحت نقطة محورية للاحتكاك بينهم وبين الإسبان الذين احتلوا السواحل الجزائرية، وقد نجحت جهود الإخوة بربوس بعد طرد الإسبان من هذه السواحل، وإلحاق الجزائر بالإمبراطورية العثمانية وتحويلها إلى قوة لا تقهر في هذا البحر، سنحاول من خلال هذا العرض إبراز الدور الذي لعبه الأتراك العثمانيون في الدفاع عن السواحل الجزائرية ضد الغزاة، وكذلك تتبع تاريخ العلاقات بين الجزائريين والأتراك خلال القرن السادس عشر.

الكلمات المفتاحية: الصراع المسيحي الإسلامي، حوض البحر الأبيض المتوسط، الاحتلال

الإسباني، الجزائر

Abstract :

Know as the Méditerranéen basin during the sixteenth century a sharp conflict between the Islamic East, led by the Ottoman Empire on the one hand, and the Christian West, led by Spain, and formed the Coast Maghreb in general and Algeria in particular, as As knew Ottoman presence basin west of the Mediterranean tragedy of Muslim Andalusians who were exposed to the worst forms of injustice and persecution and oppression by the Christians under the leadership of the Kingdom of Spain, which boosted its strength at the Federation of kingdoms of Castile and Aragon by Ferdinand the Catholic and Isabella, has presence Ottoman region to enable the Ottoman Empire to find a foothold in this region which has become the focal point of friction between them and the Spaniards who conquered the Algerian coast and occupied , Successful the efforts of the brothers Barbarossa after the expulsion of Spaniards from the coast and causing Algeria the Ottoman Empire and its transformation into a force to be invincible in the Mediterranean, we will try through this presentation to highlight the role played by the Ottoman Turks in the defense of Algerian coast against invaders, as well as trace the history of relations between Algerians and Turks during the sixteenth century.

Key words: Christian - Islamic conflict, Mediterranean Basin, Spanish occupation, Algeria.

مقدمة:

اشتدت الحملات المعادية للمسلمين في الغرب المسيحي بعد تمكن الأتراك العثمانيين من إسقاط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية على يد محمد الفاتح عام 1453، وفي الوقت ذاته كان الأندلسيون يتعرضون لأبشع أنواع الظلم والاضطهاد والقهر، الذي تواصلت فصوله حتى بعد سقوط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس عام 1492م، والذي كان من أبرز النتائج المترتبة عنه لجوء المهجرّين الأندلسيين (مسلمين ويهود)، إلى السواحل الجزائرية هروبا من جحيم محاكم التفتيش الرهيبة، فاحتضنهم سكان هذه المدن، وقدموا لهم يد المساعدة والعون، وشاركوهم في شن الغارات على السواحل الإسبانية نصرة لإخوانهم وانتقاما لهم، واستقروا بها وأسهموا فيها بفضل تفوقهم الحضاري وخبرتهم العسكرية ومعرفتهم الدقيقة للعدو على التصدي له لما حاول اللحاق بهم في المدن التي لجأوا إليها، ولكي ينتقم الإسبان منهم ومن الجزائريين الذين

حموهم واحتضنوههم، نظموا حملات عسكرية شرسة على هذه المدن منذ مطلع القرن السادس عشر، وانتصبوا على سواحلهم بعد أن تمكنوا من احتلالها بفعل تفوقهم العسكري والتنظيمي، فركزوا حامياتهم بموانئ المرسى الكبير ووهران، وبجاية، وتنس وشرشال وغيرها، وبذلك سيطروا على المجال البحري للمغرب الأوسط -الذي ظل عاجزا عن حماية فضاءه الجغرافي بسبب ضعفه -بأكمله.

وقد فتح احتلال هذه الثغور شهية الإسبان في المضي قدما نحو احتلال المزيد من المواقع والمدن الساحلية الاستراتيجية⁽¹⁾، فاحتلوا مستغانم وأجبروا مدن أخرى على دفع الجزية، وأصبح سكان مدينة الجزائر تحت رحمة المدافع التي نصبها الإسبان قبالة المدينة على جزيرة صغيرة تسمى حصن البينون، Le Pégnon وكلمة البينون تعني في اللغة الإسبانية الصخرة العالية، وقد أثار سقوط تلك المدن الإستراتيجية في يد الإسبان الرعب لدى سكان المدن الأخرى فأسرعت إلى الإعلان عن خضوعها وقبولها التبعية بالشروط الإسبانية⁽²⁾ كمدينة شرشال وتلمسان التي كانت الدولة الزيانية التي يبدو أن أيامها باتت معدودة عاجزة عن حمايتها.

وكانت الضربات الإسبانية قوية ومباغثة أحدثت رعب وفتح كبيرين وسط السكان مما أدى إلى تسارع سقوط المدن الساحلية الأخرى في أيدي الإسبان الواحدة تلو الأخرى، دون أن تتمكن السلطات القائمة حينئذ-الممثلة في مشيخة الثعالبة في مدينة الجزائر بني مزغنة، ومملكة الزيانيين في الغرب الجزائري وعاصمتها تلمسان-، من المواجهة نتيجة الضعف المتأصل بها، وتراجع قاعدتها البشرية والترابية والاقتصادية، فقد حل الضعف والهوان بمملكة الزيانيين بعدما تقلص نشاطها التجاري مع السودان والمغرب الأقصى، وتناحر حكامها على السلطة، فلم تتمكن من توحيد المغرب الأوسط. تحت راية واحدة⁽³⁾، وكانت مشيخة الثعالبة ضعيفة لا تملك من القوة ما يمكنها من الدفاع عن نفسها ضد الغزاة حيث كانت دولة مسالمة تعتمد على النشاط التجاري البحري.

أما في الشرق فقد كانت السلطنة الحفصية هي الأخرى تمر بحالة من الضعف والاضطرابات والفوضى، بسبب تنازع أفراد الأسرة على العرش، ويبدو أن حمى صراع السلطة

د/لخصر بوطبة. . . . الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن ال16م

المركزية في تونس انتقلت عدواه إلى ولايتي قسنطينة وبجاية التابعتين لملك بني حفص، إذ تخبرنا المصادر المعاصرة أن سلطة تونس على أميري قسنطينة وبجاية أضحت ضعيفة، إلى درجة جعلت من أمير بجاية عبد العزيز يتلقب باسم السلطان، وكان في حالة حرب مع أخيه أبو بكر أمير قسنطينة، فاستغل الإسبان هذه الظروف لصالحهم وقاموا بتوجيه ضربة قوية لبجاية انتهت باحتلالها عام 1510. ظهور الإخوة بربروس في المنطقة وجهودهم في تحرير المدن الساحلية للمغرب الأوسط من الاحتلال الإسباني:

يرجع أبو القاسم سعد الله تاريخ اتصال العثمانيين بالجزائر والحوض الغربي للمتوسط إلى أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، حيث أدى سقوط غرناطة عام 1492م إلى اتصال العثمانيين بسكان المدن الساحلية الجزائرية، إذ الخطر المسيحي المشترك جمع بين الطرفين فكانا يقاتلان العدو جنبا إلى جنب، ولا سيما فئة رجال الدين والعلماء، وخلال هذه الفترة كان العثمانيون يتعرفون على الفضاء الجغرافي والسياسي والعمراي والاجتماعي للمنطقة، وذلك قبل ظهور الإخوة بربروس على مسرح الأحداث في هذه المنطقة بمدة (4)، ولعل تواجد البحارة التركي كمال رايس رفقة ابن أخته البحارة الجغرافي بييري رايس في بجاية في حوالي عام 1491م لدليل على ما سبقت الإشارة إليه (5).

وهذا يدل على أن الأتراك العثمانيين لم يكونوا بعيدين عما كان يدور في هذه الجهة من البحر المتوسط، وفي هذه الأثناء كانت الدولة العثمانية قوة إسلامية حملت على عاتقها مسؤولية الدفاع عن الدويلات الإسلامية وحمايتها من الخطر المسيحي المتزايد خاصة بعد أن رفع الإسبان شعار حرب الاسترداد *la reconquista*، وكان النشاط البحري في منطقة الحوض الغربي للمتوسط قويا، وفي هذه الظروف لمعت أسماء جديدة سيكون لها الأثر البارز في تاريخ المنطقة تمثلت في ظهور الإخوة بربروس (6).

وبخصوص احتلال الإسبان مدينة بجاية (وهي ثالث مدينة تسقط في أيديهم بعد المرسي الكبير الذي وقع احتلاله سنة 1505 ووهران سنة 1509) يخبرنا الرحالة التركي بييري رايس أن مدينة بجاية تعرضت لغزو الإسبان لها في حملة عسكرية قوامها 60 سفينة، وبعد أن سقطت

د/لخصر بوطبة. . . . الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الـ16م

في أيدي الكفار غادرها السكان ولجأوا إلى الجبال المجاورة ومعهم سلطان المدينة عبد الرحمان، وبعد أن تمكن الكفار من المدينة قاموا بتهديم المباني وأصبحت المدينة تحت رحمتهم⁽⁷⁾.

وقد دخل العثمانيون إلى الجزائر من بوابة بجاية، ففي حدود عام 914هـ (1510م) غزا الإسبان هذه المدينة وتمكنوا من احتلالها، وكان عليها يومئذ صغيران ضعيفان يتنازعان السلطة (عبدالرحمن وعبدالله) فاستعان كل منهما ضد الآخر بالإسبان - على طريقة ملوك الطوائف في الأندلس ، مما سهل مهمة الأعداء في دخول المدينة، وتدميرها والقضاء على أميرها وعمراتها، الأمر الذي دفع نفرًا من علمائها أن يذهبوا إلى تونس ، وقيامهم بالاستغاثة بالإخوة بربروس وهم عروج وخير الدين وإسحاق⁽⁸⁾، الذين كانوا قد اتخذوا من ميناء حلق الوادي بتونس قاعدة لجهادهم البحري ضد المسيحيين الذين كانوا يعتدون على سفن المسلمين للقدوم إلى بجاية وتنظيم بحريتها، وتوحيد صفوف المقاومة فيها، وتخليصها من الإسبان، إذ ساعد تناحر أفراد الأسرة الحفصية الحاكمة على السلطة- كما سبقت الإشارة- على سقوط المدينة بين أياب المفترس⁽⁹⁾.

وتذكر بعض المصادر أن سكان بجاية هم أول من اتصل بالإخوة بربروس من أجل مساعدتهم على تحرير مدينتهم من الاحتلال الإسباني⁽¹⁰⁾ فلبوا دعوتهم وقاموا بمحاولة أولى سنة 1512 حسب ما يذكر صاحب الغزوات إذ يقول (وكان خير الدين قد سمع بأن بجاية أخذها النصرارى من أيدي المسلمين فظهر له أن يغزوها بمن معه من جماعة غزاة فسافروا إلى ناحية بجاية وأرسى بقرها فرأى خمسة عشرة جفنا من أجفان الكفار قادمين إلى بجاية فخرج خير الدين ومن معه من الأجفان إلى البحر طلبا للفسحة فظهر للكفار أنهم فروا منهم فحين توسط خير الدين البحر جعل يقلل في السير فقرب منه أجفان العدو طمعا فيه ورموا عليه بمجملته مدافعهم وحين اشتغل الكفار بمجملته مدافعهم هجم عليهم المسلمون فدهش الكفار من تلك الهجمة وكانت أجفان المسلمين التي قدموا فيها أربعة فأغرق عروج واحدة وأخذ خير الدين واحدة وفر الباقون إلى مرسى بجاية ثم أن خير الدين بعث الجفن الذي غنمه إلى تونس ورجعوا إلى المرسى التي كانوا فيها يريدون انتهاز الفرصة في عدو الدين. فظهر لعروج أن ينزل في البر بطائفة من الغزاة ليضرب

على العدو ببجاية فلم يساعده أخوه على ذلك لرؤيا كان رآها قبل ذلك فصمم عروج على ما أراده فرفع معه خمسين من الغزاة ونزل إلى البر فلقي مثل عدده من الكفار فاستأصلهم قتلا فلما قرب من أحواز المدينة رمى عليهم الكفار فأصيب عروج في ذراعه واشتد عليه الأمر بسبب الألم الذي حصل له فسمع أحوه بذلك فبعث له طائفة من الغزاة ليأتوا به فوصلوا إليه وحملوه إلى أخيه خير الدين فحين وصل إليه زاد به الألم وقويت عليه الجراح فأجمع الأطباء على قطع يده، فساعدهم خير الدين على ذلك وقال حياة أخي خير من موته فقطعوها فزاد عند ذلك ضعفه وكاد أن يشرف على الهلاك فأوصى أخاه بوصايا كثيرة من جملتها أن يكون سفره دائما في جفنه وأن لا يفارقه في هذه السفرة ليكون نظره عليه فركب معه في جفنه واستتاب أحد جماعته في جفن آخر (11).

وبعد عامين من هذه الواقعة أي في سنة 1514 عاد عروج وأخاه خير الدين من حديد لحصار بجاية في محاولة لانتزاعها من الإسبان بمساعدة قبائل المنطقة المحيطة ببجاية بقيادة الزعيم القبائلي أحمد بن القاضي (12) إلا أنهما لم يتمكنوا من تحقيق هدفهما فاضطرا إلى الانسحاب عنها ورفع الحصار. ويصف لنا الرحالة الحسن الوزان (ليون الإفريقي) - الذي كان شاهدا على الأحداث - هذه المحاولة في قوله: (خرجت من الجزائر قاصدا بجاية فوجدت بربروس محاصرا قلعتها فمكثت عنده لأشاهد نهاية هذه المعركة إلى أن هرب والتجأ إلى جيغل (13) ، وكان عروج قد خسّر في هذا الحصار نحو مئة من رجاله وبعد قصف المواقع الإسبانية لمدة 24 ساعة دون جدوى قرر رفع الحصار والعودة إلى جيغل (14). ويفسر ناصر الدين سعيدوني فشل بربروس في افتكك بجاية من الإسبان بقلة عتاده وحصانة موقعها، ولرغبة السكان الجبال المجاورة الذين جاؤوا لمساعدته في الذهاب إلى حقولهم لجني محاصيلهم وتأمين أقواتهم لأن الوقت كان بداية موسم الخريف (15).

لم يكن الملك الإسباني فرديناندو الكاثوليكي يخف نزعته الدينية المعادية للمسلمين في بجاية إذ نجده كان حريصا على تمسيح سكان المدينة وقد ظهر ذلك جليا من خلال الرسائل التي كان يبعث بها إلى حاكمه على المدينة "الكونت بيدرو نافارو Pedro Navaro" الذي

كان يبعث هو الآخر بالتقارير المفصلة إلى ملكه باستمرار، ليطلع منه من خلالها عن كل التطورات والمستجدات، حيث رد الملك فرديناندو على إحدى رسائله يخبره بتعيين الأمير عبد الله (16) ملكا على المناطق الداخلية على أن لا يشمل هذا التعيين بجاية لأنها أصبحت تابعة لإسبانيا، ومما جاء في هذه الرسالة: " لتكن المعاهدة مع مولاي عبد الله على الواقع الحاصل ولتكن ذات مفعول دائم، وبما أن بجاية قد أصبحت ضمن ممتلكاتنا تنفيذا للقرار الصادر بذلك من الكنيسة الرومانية فلا يمكن أن يعطى لمولاي عبد الله لقب ملك بجاية بل ليكن ملكا على أي مكان يختاره، فيما عدا البلاد الساحلية إذ أن مدينة بجاية وملحقاتها ومداخيلها وتولي الأحكام فيها وكذلك البلاد الأخرى والمدن والقرى الموجودة على ساحل البحر يجب أن تكون لنا وحدنا خالصة بصفة تامة مطلقة، ولا يحق لمولاي عبد الله أن يدعي أي حق له عليها أو أي حكم على سكانها من النصراري أو المسلمين، وبما أن البلاد المذكورة ومدنها وقرائها هي من ممتلكاتنا الخاصة، فإننا نعتز لمولاي عبد الله بالملك على بقية البلاد الداخلية من المملكة مع مداخيلها وأحكامها، إنما نحتفظ لأنفسنا بالحق الأعلى في الإشراف على القضاء الذي هو من حق السيادة، كما أن الملك (يقصد مولاي عبد الله) يجب أن يلتزم بدفع جزية سنوية نترك لك حرية تقديرها كما يسمح لعبد الله ومائة من أعوانه أن يسكنوا مؤقتا برض بجاية إلى أن يجد عاصمة لملكه شريطة أن لا يبني بذلك الرض مسجدا" (17). إن هذه الرسالة تبين بما لا يدع مجالاً للشك النزعة الدينية للملك وتعصبه اتجاه الكنيسة الكاثوليكية، وسعيه إلى محاربة الإسلام في هذه الربوع، من خلال حرصه الشديد على ألا يقيم الملك مولاي عبد الله مسجداً في بجاية، ويوحى هذا الكلام بأن الإسبان قد قاموا بتهدم المساجد التي كانت عامرة في هذه المدينة والتي قدرت حسب بعض المصادر بسبعين مسجداً (18).

وفي شهر جوان 1510 عين الملك فرديناند الدون "أنطونيو رافانيدا Antonio Ravanida" حاكماً جديداً على بجاية خلفاً لبيدرو نافارو السابق الذكر الذي غادر المدينة في نفس الشهر، وأعطى الملك للحاكم الجديد تعليمات صارمة تتعلق بحكم المدينة، حيث أرسل له رسالة مؤرخة في 23 أكتوبر 1511 يخول له فيها حق التعاقد مع أي طرف (يقصد الأمير

د/لخص بوطبة. . . . الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن ال16م

عبد الرحمان بن عبد العزيز أو الأمير مولاي عبد الله(شريطة أن يكون ذلك في مصلحة إسبانيا ويفضل التعاقد مع مولاي عبد الله، كما نصحه من خلال تلك الرسالة أن يتعامل مع عبد الرحمان كالنند ومع عبد الله كتابع (19).

وفيما يتعلق بالأميرين عبد الرحمان وعبد الله المذكورين فيبدو أن كلاهما أبدى رغبته في الارتباط بالإسبان مقابل الاعتراف بكل منهما بالملك، وقد تزامن ذلك مع كون الإسبان لا يرغبون في التورط في أية حرب داخلية هم في غنى عنها، فقررُوا دعم أمير ضد الآخر بالسلاح وحتى يتسنى لهم القضاء على الأول وفقاً للمبدأ المعروف "فرق تسد"، وقد تمكن الحاكم الدون أنطونيو من إبرام معاهدة مع كليهما تنص على ما يلي:

-انعقد صلح دفاعي هجومي بين إسبانيا الملكيين عبد الرحمان وعبد الله خدمة لمصلحة أسبانيا، كما انعقد بين الملك من جهة وبينهما عقد تحالف دائم.

-تعترف أسبانيا بالأمير عبد الرحمان ملكاً على جبال القبائل.

-يعترف عبد الرحمان علناً بملكين بجاية للأسبان وصخرة الجزائر ودلس وكل المراسي التي تقع على البحر.

-إرجاع جميع الأسرى المسيحيين إلى الأسبان.

-العمل على إصلاح كل القلاع والحصون داخل للمملكة.

-ييعث الملكيين عبد الرحمان وعبد الله بولديهما رهينة عند الأسبان كضمانة لاحترام المعاهدة.

-يتعهد العرب بتزويد بجاية سنويا بالمقادير التالية:

3600 فنيق قمح، 100 فنيق شعير، 1000 رأس من الغنم، 50 بقرة، 1000 حمل من الحطب، تسلم أحمال الحطب مجاناً لبجاية، أما بقية الموارد فيتقاضى الموردون أثمانها، وكان الملك فرديناند حسب المؤرخين الأوروبيين يعلن بعد هذا النصر جهاراً عن فكرته في تعميم المعركة الصليبية وأنه سوف يتعقب المسلمين الكفار إلى أن يسترجع بيت المقدس وأنه سيتعاون مع فرسان جزيرة رودس ويستولي على مصر (20).

وتجدر الإشارة إلى أن أحد أبناء مولاي عبد الله حليف الإسبان ودليلهم في بجاية أرسله والده إلى إسبانيا حيث تمت تربيته على الديانة المسيحية ويحمل اسم "الدون فرناندو" تيمنا بالملك فرديناند الكاثوليكي، فبعث برسالة من بجاية التي يبدو أنه قدم إليها من أجل أداء مهمة بها، إلى الملك شارل الخامس الذي خلف فرديناندو الكاثوليكي بعد وفاته⁽²¹⁾ يطلب منه مساعدته هو ووالده في تسديد ديونهما والسماح له بالإقامة في بجاية لأن بقاءه بها سيعود بالفائدة الكبيرة على حكومته، حيث أخبره بأنه سيعمل على إقناع سكان المدينة باعترافهم بالمسيحية بكل يسر، كما أن وجوده بالمدينة سينشط الأسواق وسيأتي السكان المجاورين للتسوق وينتج عن ذلك أرباح طائلة تعود على خزينة الدولة، وطلب في الرسالة ذاتها من هذا الملك السماح له بالشروع في التفاوض مع أمير كوكو "أحمد بن القاضي" الذي كان يفرض حصاره على الحامية الإسبانية في بجاية، وذكر أنه لا يحتاج جنودا ولا أسلحة، وكل ما يحتاج للقيام بهذه المهمة رسائل من الملك فقط⁽²²⁾.

هكذا جرت الأحداث في بجاية ونواحيها فلتنطرق إلى مدن ساحلية أخرى، ففي مدينة الجزائر- التي كانت تحت حكم قبيلة الثعالبة⁽²³⁾ بزعامة الشيخ سالم التومي أو سليم كما في بعض المصادر- وبينما كان الإخوة بربوس يقيمون في منطقة جيغل لما بلغهم (أي سكان مدينة الجزائر) عن الاستعدادات الجادة التي أظهرها في محاربة الإسبان المعتدين قرروا الاستنجاد بهم فأرسلوا لهم وفدا في أوائل عام 1516 يطلبون منهم المساعدة في تخليص مدينتهم من الحامية الإسبانية التي كانت قد أقامت حصنا منيعا على إحدى الجزر المتواجدة قرب المدينة الجزائر الذي يسمى حصن البينون كما سبقت الإشارة⁽²⁴⁾، أي حصن الصخرة⁽²⁵⁾، فاستجاب عروج لندائهم وتوجه بنفسه على رأس جيش عن طريق البر، وأرسل في الوقت نفسه قوة أخرى عبر البحر إلى مدينة الجزائر⁽²⁶⁾ وعند وصوله شرع في قصف الحصن لعدة أيام لكن ضربات مدافعه لم تكن تصل إلى أهدافها، وقد أدى فشل عروج كما يذكر هايدو إلى تدمير سكان المدينة بما فيهم الشيخ سالم التومي واستيئاهم وأظهروا ندمهم على استغاثتهم بالأتراك، وتسبب ذلك في

وقوع مناوشات بينهم وبين الأتراك فكان تدخل عروج عنيقا حيث قام باغتيال الشيخ سالم التومي خنقا بينما كان في الحمام يتوضأ لصلاة الظهر⁽²⁷⁾ وأعلن نفسه ملكا على البلاد⁽²⁸⁾. ويجبرنا مرة أخرى الرحالة الحسن الوزان الذي عاصر مجيئ الإخوة بربروس إلى المغرب الأوسط قائلا: (ولما مات الملك الكاثوليكي⁽²⁹⁾ أراد أهل الجزائر أن يفسخوا الهدنة ويتخلصوا من الخراج الذي كانوا يؤدونه لإسبانيا، فأرسلوا إلى بربروس ليكون قائدا لهم، نظرا لقيمته العسكرية العظيمة، وكفائته في محاربة المسيحيين وكان الخلاف قائما بين بربروس و أحد المتسلطين على إمارة الجزائر فقتله بربروس غيلة في أحد الحمامات، وكان هذا المتآمر زعيم الأعراب القاطنين بسهل متيجة، ويسمى سليم التومي من قبيلة ثعلبة وهي فرع من معقل، استولى على الحكم بالجزائر عندما احتل الإسبان بجاية، واستقر فيها عدة سنوات حتى أتى بربروس فقتله ونودي به ملكا فضرب السكة وأذعن له جميع السكان بالطاعة، وأرسلوا له الخراج)⁽³⁰⁾.

وعندما رأى سكان مدينة الجزائر صرامة عروج راييس وشدة بأسه أعلنوا ولاءهم وخضوعهم لسلطته. وبعد مقتل عروج⁽³¹⁾ عام 1518 على يد الإسبان في محاولته فتح تلمسان، فخلفه في حكم مدينة الجزائر أخاه خير الدين، الذي تأثر كثيرا لمقتل أخيه، فكان منحط المعنويات ومصاب بالإحباط، حينئذ همَّ بالعودة إلى الأناضول حيث موطنه، لكن سكان مدينة الجزائر الذين خافوا من انتقام الإسبان الشديد منهم تمسكوا به وطلبوا منه البقاء لحمايتهم، فأخبرهم أنه لا يمكنه حمايتهم، وأن عليهم أن يطلبوا الحماية من سلطان الدولة العثمانية سليم الأول وهو الوحيد القادر حينئذ على بسط حمايته على سكان هذه الناحية والوقوف في وجه الأطماع المسيحية، واقترح عليهم أن يشكلوا وفدا من الأعيان ويعتثوا به إلى السلطان المذكور ليعرضوا عليه الانضمام إلى دولته، وفعلا تكون الوفد الذي كان برئاسة الشيخ أحمد بن القاضي وسافر هذا الوفد إلى اسطنبول لطلب المساعدة والنجدة من هذا السلطان، وما هي إلا أشهر معدودة ويعود الوفد بموافقة السلطان على طلبه، مع قوة من الجيش الانكشاري تعدادها نحو 2000 جندي مع خمسة سفن حربية، مع قفطان تولية خير الدين بايلرباي على الجزائر، وقد شكلت هذه القوة الانكشارية جيش الجزائر المستقبلي، واستمر تقليد إرسال الجنود من اسطنبول

إلى إيالة الجزائر حتى الاحتلال الفرنسي سنة 1826⁽³²⁾، فأصبحت الجزائر منذ ذلك التاريخ تابعة رسمياً إلى الدولة العثمانية أي منذ شهر جانفي 1520 وهو الوقت الذي عاد فيه الوفد حسب تقدير الباحث عبد الجليل التميمي⁽³³⁾.

حملة ديغو دو فيرا Diego de Vera على مدينة الجزائر 1516:

في الوقت الذي كانت تجري فيه الأحداث بمدينة الجزائر قيام عروج وتجروّه على قصف حصن البينون وتهديده وكذلك حركته في شرشال والتي انتهت بإخضاعها بعد أن كانت تدفع الجزية للإسبان، أحس هؤلاء بالخطر يتهددهم إذا لم يسارعوا للقضاء على الوجود التركي بالجزائر قبل أن يستفحل أمره، فأرسلوا في خريف 1516 حملة بحرية تتألف من 80 مركبا على متنها 8 آلاف مقاتل برئاسة الدوق ديغو دوفيرا Diego de Vera، وما أن نزلت الجيوش الإسبانية على شاطئ باب الواد وقيل حسين داي حتى اتحال عليها السكان الأهالي ومعهم قوات الأتراك بالقتل، وضربت عاصفة هوجاء فاجأت مراكبهم في البحر فحطمت غالبيتها وتم قتل 3000 من النصارى وأسر 400 جندي⁽³⁴⁾، إن انتصار عروج هذا قوى مركزه لدى سكان مدينة الجزائر من جهة وانتشرت الأخبار في المدن المجاورة الأخرى من جهة أخرى، مما سهل عليه مد نفوذه عليها بسهولة ويسر منها مدن دلس والمدية ومليانة ثم صوب أنظاره اتجاه الغرب حيث ملوك بني زيان في تلمسان وحמיד العبد في تنس كانوا يتعاونون مع الإسبان فقرر السير للقضاء عليهم وإخضاع منطقة نفوذهم إلى سلطته⁽³⁵⁾. حيث تمكن من التغلب على حميد العبد في صيف 1517 في تنس بفضل سلاح المدفعية والبنادق وفرق جموعه، وفي تنس جاءه وفد من مدينة تلمسان يطلبون منع القدوم إلى مدينتهم لتخليصهم من الملك أبو حمو الزياني الذي تحالف من الإسبان والذي يبدو أنهم مكنوه من اغتصاب الملك من أخيه أبي زيان فقرر عروج السير إليه للقضاء عليه وإعادة صاحب الحق في كرسي العرش إلى منصبه. وبالمقابل كانت هزيمة الإسبان في هذه الحملة نكبة عظيمة وانتكاسة كبيرة لهم في هذه البلاد رغم تواطؤ بني زيان وحاكم تنس حميد العبد⁽³⁶⁾

حملة هوغو دو مونكادا Hugo de Moncade 1518:

بعد مقتل عروج شعر خير الدين بربروس⁽³⁷⁾ بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه وعظمتها لا سيما حالة عدم الاستقرار التي لمسها في السكان بسبب عدم استقرار مواقفهم حيث تعاون بعضهم مع العدو وتحالفوا معه، ولم يكن خير الدين أقل خبرة وحنكة من عروج حين أدرك أن الإسبان سيغتنمون فرصة مد نفوذهم في تلمسان وتمكنهم من اغتيال عروج للقيام بهجوم قوي على مدينة الجزائر للقضاء على القوة التركية وهي لا تزال في المهد، فكان دائم الاستعداد للتصدي لهم، ولم تكن توقعاته وهمية إذ قاد ملك صقلية هوغو دو مونكادا⁽³⁸⁾ Hugo de Moncade بأمر من الإمبراطور شارلكان حملة بحرية عام 1518 مباشرة بعد مقتل عروج ضد مدينة الجزائر بعد أن اتفق مع الملك الزياني أبو حمو الثالث على أن يقوم هو بالزحف على المدينة برا، وكانت الحملة تتألف من 40 سفينة على متنها 5000 محارب، لكن السكان التفوا حول خير الدين في الدفاع عن مدينتهم فهزم الإسبان شر هزيمة إذ هبت رياح قوية حطمت سفنهم، وإلى جانب العاصفة حدث هناك خلاف بين القادة الإسبان حول خطة الهجوم مما أضعف مركزهم كما أن المساعدات التي وعد بها السلطان الزياني أبو حمو لم تصل⁽³⁹⁾.

ومنذ ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية في عام 1519، وبعد استشهاد عروج في تلمسان أخذ أخاه خير الدين على عاتقه استكمال المهمة التي بدأها عروج والتي تتمثل في الاستمرار في عمليات إنقاذ المسلمين الأندلسيين وحماية السواحل المغربية من الغزو الإسباني لها والدفاع عنها، فتمكن من طرد وملاحقة الإسبان من كافة المدن الساحلية، وكان قصف حصن بينون وتهديمه من أكبر الإنجازات التي حققها خير الدين وكان لها صدى كبيرا لدى السكان الجزائريين الذي وصلت إلى مسامعهم اخبار هذا النصر العظيم، وكان له وقع صادم في غسبانيا خاصة وفي العالم المسيحي بصفة عامة، ولم يبق تحت السيطرة الإسبانية سوى المرسى الكبير ووهران في الجهة الغربية من الإيالة، وبجاية في الجهة الشرقية، لكن لم يطل مكوثهم في هذه المدينة الأخيرة حيث تمكن عام 1555 البايبر باي صالح رابيس من تخليصها من الإسبان سنة 1555 بمساعدة مقاتلين

أشداء من زواوة ومن جميع جهات البلاد وكان على رأس هذه القوات امير كوكو ابن القاضي، وسلطان قلعة غمارة بني عباس عبد العزيز⁽⁴⁰⁾، أما وهران والمرسى الكبير فظلتا تحت الاحتلال الإسباني إلى سنة 1792 حيث تم تحريرهما على يد الداوي حسن باشا صهر الداوي المشهور محمد عثمان باشا الذي كان في الواقع هو من مهد لهذا الفتح واستعد له لكن المنية اختطفته قبل إتمامه هذا المشروع⁽⁴¹⁾.

حملة شارلكان⁽⁴²⁾ على مدينة الجزائر 1541:

تعتبر حملة شارلكان على مدينة الجزائر من أعظم الحملات التي عرفتها الحروب البحرية في العصر الحديث، وهي تعبر عن الصراع القوي الذي ميز القرن السادس عشر بين القوى المسيحية الممثلة في إسبانيا، والقوى الإسلامية الممثلة في الدولة العثمانية، ولا تكمن أهمية هذه الحملة في القوة الهائلة التي جاء بها الإمبراطور شارلكان بقدر ما تكمن في رغبة هذا الإمبراطور في فرض هيئته واستعراض قوته ليس على الدولة العثمانية والجزائر فحسب بل على كل أوروبا. وعن عدة هذه الحملة الرهيبة يقول صاحب الزهرة النائرة (خيل لأهل الجزائر حين طلعت هذه العمارة أنها جبل تسير في البحر، وحين استقرت بذلك الجون خيل لهم أن جبلا استقر هنالك وحصلت بذلك صيحة عظيمة لأهل الجزائر لأنهم لم يروا مثل هذه العمارة سابقا).

وحيثما جمع حسن آغا أهل المدينة من الأعيان والصلحاء ونصب الديوان وجعل يهون عليهم الأمر ويذكرهم بأنه جاءت مثل هذه العمارة زمن عروج وخير الدين لكن الله رد الكفار على أعقابهم، ويستشيرهم ويجرضهم على الجهاد والثبات مذكرا إياهم بالآيات القرآنية وأحاديث الرسول الدالة على الجهاد والشهادة أو النصر، فحصلت لأهل الجزائر قوة عظيمة بكلام حسن آغا واستعدوا للدفاع عن مدينتهم، وفتح حسن آغا خزانة السلاح ووزعه على المقاتلين، وأما الطاغية ويقصد به الإمبراطور فقد شرع في إنزال قواته برا وحين رأى استعداد صاحب المدينة لقتاله قال لرجاله "أنظروا إلى صاحب الجزائر كيف حدثه نفسه بقتالنا ومدافعتنا، من أخذ البلد.. وكيف يقاتلني هذا الرجل مع كثرة عساكره؟ وهل هي إلا شردمة من الأتراك وطائفة من أهل البلد لا خبرة لهم بالقتال؟ وكان من حق هذا الرجل أن يطلب الأمان لنفسه ولمن معه من

أبناء جنسه، ويخلي بين وبين البلد" وأقسم اللعين يقول صاحب الزهرة أن يجرب الجزائر حجرا حجرا ويمحو أثر الإسلام منها وكتب بعد ذلك كتابا إلى حسن آغا يقول فيه "أيها الرجل أنت خديم من خدام بربروش وأنا ملك إسبانيا فكيف تحدثك نفسك بمقاتلتي؟ أما تعرف أنني استوليت على تونس أخرجت منها بربروشة وهي أعظم من الجزائر بكثير. وقد دخلتها عنوة بسييفي وخرج منها سيدك بربروشة هاربا، فتحقق إني مالك هذه المدينة كما ملكت مدينة تونس، وإن لم يكن أخذها دفعة أطاول حصارها هذه الشتاء إذ معي من الزاد والمال ما يكفي هذه العساكر وإن احتجت إلى شيء فبلادي قريبة... وقد بذلت لك الأمان فإن قبلته فيها، وإن لم تقبله إلى أن نشرع في القتال فلا أمان لك... فإنك إن عاندت ولم تمل إلى ما دعوتك إليه أمرت العسكر يدفعون إلى المدينة دفعة واحدة (43).

ويقلعونها حجرا حجرا ويقتلون من فيها من كبير وصغير" ذهب رسول اللعين في استعلاء وفخر واستلم حسن آغا الكتاب ورد عليه بقوله "يا كلب النصراني هل أنت إلا كلب النصراني؟ ما قدرت على أضعف بلاد البربرة، فكيف على مدينة الجزائر؟ ولو سمع سلطاننا الأعظم بأنك طغيت على الجزائر، لأرسل إليك عبدا من عبيده بشرذمة من عسكره يستأصلك بحول الله وقوته،... وقد استدللنا بكتابك على قلة عقلك، إذ الإنسان لا يفتخر بشيء حتى يفعل، وأنت عكست، وقد أتيت هذه المدينة مرتين: مرة في زمان عروج راييس ومرة في مدة أخيه خير الدين، وقد سود الله وجوهكم في المرتين، وهذه المرة إن شاء الله كذلك" فلما قرأ اللعين كتاب حسن آغا استشاط غيضا وغضبا وأمر بإنزال المدافع (44).

دوافع هذه الحملة:

- رغبة شارل الخامس في الانتقام من الجزائر التي ازدادت قوتها بعد القضاء على حصن البينون وامتلكت أسطول قوي كان يغير على السواحل الإسبانية في عهد خير لدين ورفع خليفته حسن آغا من قوة الأسطول (45).

- رغبة إسبانيا في السيطرة على البحر المتوسط حيث كان نفوذها يشمل إسبانيا وجزر البليار وصقلية ونابلي والفلاندر، وكان شارل الخامس يهدف إلى القضاء على قوة الجزائر وعلى التواجد العثماني بها، وقطع الطريق على فرنسا للاتصال بحلفائها العثمانيين.

استعدادات الطرفين:

منذ أن احتل شارلكان تونس عام 1535 وهو يستعد لحملة ضد الجزائر التي تعتبر القلعة الوحيدة التي كان يرتكز عليها الأتراك، فكان ييث الجواسيس ليزودوه بالمعلومات الكافية لتحقيق النجاح للحملة، وبعد أن جهز نفسه أرسل إلى كل الحكومات التابعة له وغير التابعة يطلب المساهمة في الحملة فطلب من البابا نفسه إعانة مالية، فهب الجميع للمساعدة ماديا ومعنويا، وقد اختلف في عدد السفن قادها الإمبراطور فهي بين 400 و500 سفينة واختلفت المصادر كذلك حول تحديد عدد المقاتلين فالمصادر العربية ذكرت 50000 مقاتل⁽⁴⁶⁾ وبعضها 90000، أما المصادر الغربية فتحدد العدد بين 22000 و36000، وكانت الأرمادة بقيادة الإمبراطور يساعده أمهر القادة أمثال دوريا ومونكادا وكوتيز وألكودات.

ومن الجانب الجزائري كان حسن آغا على أتم الاستعداد فأحاط نفسه بالعلماء والقادة الشجعان وعلى الرغم من قلة الجنود (لم يتجاوز عددهم 10 آلاف)، إلا أن حسن آغا صمم على المقاومة، وقد حاولت المصادر الغربية النيل من شخصية حسن آغا وخير الدين حين ذكرت أن مفاوضات جرت بينهما وبين الإمبراطور من أجل تسليم المدينة دون مقاومة، إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل، وهي محاولات يائسة الغرض منها التشكيك في إخلاصهما لأهالي الجزائر وللسلطان العثماني سليمان القانوني. وللتأكد من عدم صحة هذا الزعم نعود إلى صاحب الزهرة النيرة الذي يعطينا وصفا دقيقا للحالة العامة في مدينة الجزائر عند قدوم الحملة الإسبانية.

سير المعركة:

في يوم 23 أكتوبر نزل العدو بالحامة شرق الجزائر وحاول التقدم نحو الداخل محاصرة المدينة برا دون أن يأمر بإنزال المؤونة والذخيرة رغم نصائح دوريا له، وجرت معارك عنيفة بين قصف متبادل بالمدافع والقتال وجها لوجه، إلى أن هبت عاصفة قوية حطمت سفن الأعداء

د/لخصر بوطبة. . . . الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الـ16م

وأغرقت معظمها ففقد الجيش الإسباني مؤنثته إلى درجة أنهم اضطروا إلى ذبح حيولهم لأكلها، وفي تلك الفوضى فقد الإمبراطور عددا كبيرا من جنده إما قتلا أو غرقا، فاضطر إلى الانسحاب في يوم 29 أكتوبر نحو تامنتفوست في الجهة الشرقية وبصعوبة عبر نهر الحراش بعدما كدس الجنود أخشاب السفن المحطمة داخل النهر كي يتمكن إمبراطورهم من العبور وفي تامنتفوست انتظر قليلا لعل العاصفة تهدأ لكن إرادة السماء كانت ضد إرادته فانسحب إلى بجاية خائبا منحنط المعنويات (47). وفي بجاية عاين الإمبراطور شارلكان تحصينات المدينة وأمر بتعزيزها، كما صب غضبه على يهود المدينة فاسترق بعضهم وأعاد الأغلال للبعض الآخر واضطهدهم وأمر في الحين بتجريدهم من المكانة التي كانوا يحظون بها.

انهزام شارلكان وانسحابه إلى بجاية:

إن سوء اختيار شارل الخامس لتاريخ الهجوم رغم تحذيرات القرصان أندري دوربا له، والتفاف السكان بحسن آغا وشجاعة وذكاء هذا الأخير وتهاطل الأمطار الغزيرة والرياح القوية كل ذلك جعل الطاغية شارلكان يمتنى بهزيمة لم يمتنى بها في حياته (48)

نتائج الحملة:

الخسائر البشرية والعسكرية، حيث تكبد جيش شارلكان مقتل 12 ألف جندي حسب صاحب الغزوات وعدد كبير من الجرحى وأسر الكثير من النساء والأطفال، وغرق كل السفن تقريبا وخسائر كبيرة في الأموال والخيول التي بلغت 4000 خيل حسب بعض المصادر والعتاد الحربي إذ غنم الجزائريون نحو 200 مدفعا دعموا بها تحصيناتهم ودفعااتهم. أما الخسائر المعنوية فكانت كالتالي:

-عظم شأن حسن آغا وإعجاب السلطان به حيث هنأه وأرسل له الهدايا وجعله من الرجال المقربين إليه.

-ازدياد هيبة الجزائر ومكانتها داخليا وخارجيا

-ميل سلطان بني زيان الذي كان حليف الإسبان إلى جانب الأتراك وماهي إلا سنوات قليلة وتخضع تلمسان إلى حكم الأتراك نهائيا (1551)

د/لخصر بوطبة . . . الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الـ16م

-عزم حسن آغا على تأديب ابن القاضي الذي يقال انه وعد شارلكان بتقديم الدعم فسار إليه عام 1542 على رأس الجيش وتمكن من إخضاعه.

-تراجع سمعة الإمبراطور شارلكان في إسبانيا وفي العالم، حيث ازدادت انتصارات الأتراك في البحر المتوسط وعادت تونس إلى الحظيرة العثمانية بعد أن كانت تتأرجح بين العثمانيين والإسبان، وقبلها خضعت تلمسان ثم نجح صالح رايس في افتكاك بجاية عام 1555.

-فشل المشروع الإسباني في الهيمنة على البحر المتوسط والشمال الإفريقي (49).

-وفي تلمسان تمرد السلطان محمد بن عبد الله على أخيه واغتصب منه الحكم وراسل الإمبراطور على أن يدعمه مقابل تمكينه من انتزاع ما اغتصبه منه الأتراك من مناطق في حالة تمكن شارلكان من احتلال مدينة الجزائر وشرشال وتنس، وفي الوقت نفسه كان أخوه عبد الله مستعداً للتنازل عن كل شيء مقابل تمكينه من الجلوس على كرسي العرش.

-وفي تنس التي انقلب فيها حميدة العبد ضد خير الدين الذي أعاده إلى الحكم بعد أن عزله عروج، بعد هزيمة خير الدين في تونس 1535 وتحالف مع الإسبان وتعاون معهم على أن يدعمهم ب 3000 من رماة الرماح في حملتهم المنتظرة على الجزائر (حملة شارلكان).

-أما ابن القاضي أمير كوكو فقد وعد شارلكان عن طريق المراسلات التي تمت بينهما بتقديم الدعم اللازم وخرج على رأس جيشه للحاق بشارلكان في مدينة الجزائر لكنه سمع في طريقه خبر هزيمة هذا الأخير فعاد أدراجه واكتفى بتقديم الدعم له عندما وصل إلى بجاية وظل يرأسه ويجرضه للقيام بحملة أخرى ضد الجزائر لكن مساعيه باءت كلها بالفشل.

ويبدو أن مغادرة خير الدين أسالت لعاب الجميع ضد الجزائر فهذا السلطان الحسن الحفصي يغير على قسنطينة بعد هزيمة خير الدين في تونس في محاولة يائسة لاسترجاعها. وبعد أن تمكن الحكام الأتراك الأوائل من قهر الإسبان وتحطيم شوكتهم في السواحل الجزائرية تفرغوا للتنظيم الداخلي للإيالة الجزائرية التي أصبحت قوة لا تقهر في حوض البحر الأبيض المتوسط، استمرت في لعب الدور الأساسي طوال مدة تناهز الثلاثة قرون من الزمن.

خاتمة:

وفي الأخير يمكن استنتاج الدور الأساسي الذي لعبه سكان الجزائر في الإسهام في الدفاع عن الأراضي الجزائرية بالوقوف إلى جانب العثمانيين الذين كرسوا جهودهم لتطهير السواحل المغاربية من الاحتلال الإسباني، وأن رغبة السكان في الانضواء تحت الراية العثمانية كان يهدف حمايتهم من اعتداء المسيحيين عليهم، ويبدو أن رغبتهم توافقت مع رغبة السلطان العثماني سليم الأول الذي كان يطبق سياسة التوسع والفتوحات، فلا شك أنه كلن يتطلع إلى ضم إقليم الشمال الإفريقي إلى حظيرة الدولة العثمانية، فلما جاءت الفرصة على طبق من ذهب لم يدعها تذهب دون أن يغتنمها.

كما نستنتج أن الصراع العثماني المسيحي قد امتد من الحوض الشرقي للمتوسط إلى حوضه الغربي، وأن تأسيس إيالة الجزائر وتبعتها للدولة العثمانية وقف حجر عثرة أمام الأطماع الإسبانية في جعل البحر المتوسط بحيرة إسبانية كما وقف في وجه الأطماع الإسبانية خاصة والمسيحية عامة في نشر الديانة المسيحية في القارة الإفريقية انطلاقا من المغرب الأوسط (الجزائر).

الهوامش:

(1) Bartolomie Bennassar : Histoire des Espagnoles, 1. Du VI e au XVII e siècle, Armand Colin, éditeur, Paris, 1985, p 590.

(2) عمار بن خروف: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ج1، دار الأمل، الجزائر، 2006، ص 21.

(3) دلندة الأرقش، جمال بن طاهر، عبد الحميد الأرقش: مقدمات ووثائق في تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، 1995، ص33.

(4) سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (20-10م)، ج1، ش. و. ن. ت، الجزائر1981، ص131 .

(5) Piri Reis: la description des cotes Algériennes, studies on Turkish Arab relation, Istambol, 1986, p163.

(6) عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ط1، مطبعة الجبلابي، القاهرة، 1979، ص24.

(7) Pérrri Reis: op, cit, p164.

د/لخص بوطبة. . . . الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن ال16م

(8) كان لهم أخ رابع يقال له إلياس يعتقد أنه الأكبر سنا لكنه اتبع طريق العلم والقلم، في الوقت الذي فضل فيه الإخوة الثلاثة الجهاد البحري.

(9) تعرضت مدينة بجاية للتخريب أثناء احتلالها من طرف الإسبان عام 1510، حيث هدم الغزاة قصورها ومنازلها ومساجدها، ونهبوها كما تعرضت للتخريب والهدم مرة أخرى على يد الاحتلال الفرنسي عام 1833، حيث قام الفرنسيون بتهدم عمران المدينة وقاموا ببناء المدينة الأوروبية على أنقاض بجاية القديمة، ولم يسلم من الهدم سوى باب اللوز وكارامان

(10) Fray Diego de Haedo: **Histoire des Rois d'Alger**, traduit de l'Espagnole par A. Berbrugger et Dr Monnereau, édition Bouchène, p47.

(11) مجهول المؤلف/، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934، ص 18.

(12) تمكن أحمد بن القاضي من تأسيس إمارة أو مملكة واتخذ موضع له في جبل كوكو الذي عرفت هذه الإمارة أو للمملكة باسمه (مملكة أو إمارة كوكو) في مطلع القرن السادس عشر، وكانت تتشكل مثل غيرها من الممالك البربرية، من تحالف مجموعة من القبائل تحت زعامة رئيس أقوى قبيلة ، وكانت هذه المملكة تضم القبائل الساحلية وقبيلة زواوة، تأسست حسب أحد الكتاب في حوالي سنة 1515 بعد سقوط بجاية في أيدي الإسبان. أنظر، لحسين بن شيخ آث ملويا: **القانون العرفي الأمازيغي**، دار الخلدونية، الجزائر، 2006. توالى على حكم مملكة كوكو أحمد بن القاضي لمدة ثلاث سنوات، ثم خلفه أخاه محمد لمدة ثلاثين عاما، ثم أحمد بن أحمد حفيد محمد بن أحمد الذي حكم مدة عشر سنوات وتوفي عام 1583 تاركا الحكم لابنه محمد بن أحمد، ثم تولى الحكم بعد هذا الأخير عمر بن القاضي، لكن بوليفة يذكر أن أحمد بن القاضي قتل عام 1527 ليحل محله أخاه الحسين الذي حكم المملكة مدة طويلة من الزمن. أنظر:

Boyer Pierre : « Espagne et Coucou. Les négociations de 1598 et 1610 », In : **R.O.M.M**, N°8, 1970. pp. 29. Boulifa: op, cit, p399.

أنظر كذلك:

Tahar Oussedik : **le Royaume de Koukou**, E.N.A.L, Alger, 1986.

(13) الحسن الوزان: **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط1، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص39.

(14) Elie de la Primaudae : **établissement Turque, dans l'Afrique du nord**, p353.

(15) عثمان الكعاك: **موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003، ص272.

د/لخصر بوطبة. . . . الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الـ16م

(16) كان عبد الله هذا حسبما يذكر فيرو قد أعماه عمه العبد العزيز واغتصب منه الحكم وزج به في السجن، وأثناء أحداث الاحتلال الإسباني تمكن من الهروب من السجن، ولكي ينتقم من عمه المعتصب وضع فسه في خدمة العدو الإسباني.

(17) توفيق المدني: المدني (أحمد توفيق): حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وإسبانيا (1792-1492)، ش. و.ن. ت، الجزائر، 1976، ص 132.

(18) Abou Ali Elmarini : op, cit, p 232.

(19) توفيق المدني: المرجع السابق، ص 132.

(20) توفيق المدني: المرجع السابق، ص 135.

(21) ويعرف بشارلكان ولد عام 1500 ورث عرش إسبانيا عن والدته جان ابنة الملك فرديناند وإيزابيلا اللذان طردا المسلمين من الأندلس، عين أميراً على ألمانيا بعد موت جده لأبيه مكسيمليان، عين إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة بعد وفاة فرديناندو الكاثوليكي سنة 1516 قضى حياته في محاربة الملك الفرنسي فرانسوا الأول، وحارب خير الدين وحاول الاستيلاء على الجزائر لكنه لم يفلح، كما حارب المذهب اللوثري وأتباعه واضطهدهم، ولما يفس من الحروب والصراعات تنازل عن العرش لابنه فيليب الثاني سنة 1556 واعتزل الحياة في دير حتى توفي سنة 1558.

(22) Élie de La Primaudaie: documents inédits sur l'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique (1506-1574), A. Jourdan , Libraire – Éditeur, 4, place de gouvernement, Alger, 1875, pp, 99-100.

(23) قبيلة النعالية: قبيلة عربية تنحدر من ثعلب بن علي بن بكر بن صغير من عبيد الله، لمزيد من التفاصيل راجع، ابن خلدون: المصدر نفسه، المجلد السادس، القسم الأول، ص126 وما يليها. أنظر كذلك:

Stephen Clissold: **The Barbary Slaves**, Totowa NJ, 1977.

(24) Yves Ternon : Empire Ottoman, le déclin, la chute, l'effacement, édition du Felin, Paris, 2002, pp, 50-51.

(25) يسمى أيضا برج الفنار وقد تمكن خير الدين من تحطيمه في يوم 16 ماي 1530

(26) Haedio: op, cit, pp 52- 53.

أنظر كذلك أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1791-1766)، م، و، ك، الجزائر، 1986، ص23-24.

(27) اختلفت الروايات حول مقتل سالم التومي بين من يذكر أنه قتل خنقا على يد عروج، ومن يقول إن عروج شنقه علانية، ورأي آخر يذكر أنه مات مسموما، أنظر: خليفة إبراهيم حماش: المرجع السابق، ص27. أنظر كذلك:

Corinne Chevalier: **Les trente premiers Années de l'Etat d'Alger, 1510-1541**, O.P.U, Alger, 1986, p43.

(28) Haedo: op, cit. p53.

(29) هو الملك فرناند الخامس توفي يوم 23 جانفي 1516، ثم خلفه ابنه شارل الخامس.

(30) الحسن الوزان: وصف إفريقيا، م 2، ص 39.

(31) يذكر بربوجر أن ابن القاضي (حليف الأتراك) انسحب بجيشه عائدا إلى بلاد القبائل متخليا عن عروج مما جعل خير الدين يتهمه بالتسبب في مقتله وسعى إلى الانتقام منه فساءت العلاقات بين الطرفين. أنظر:

Berbrugger: les époques militaires dans la grande Kabylie, Paris, 1857, p61.

(32) بعد الحصار البحري الذي فرضته فرنسا على الجزائر عقب حادثة المروحة المفتعلة لم تتمكن الباب العالي من إرسال الفرق العسكرية التي اعتاد على إرسالها إلى الجزائر، وتشكل هذه العادة إحدى أبرز مظاهر التبعية للباب العالي، ذلك أن توقف الباب العالي على إرسال المهنددين بغرض تجديد الجيش الجزائري يعني اضطراب الحكومة الجزائرية إلى فتح باب التجنيد على مصراعيه أمام السكان المحليين يعني الجزائريين وهذا ما لم يكن يرغب فيه الأتراك. وتجدر الإشارة إلى أن الداوي علي حوجة 1817-1818 كان يرغب في القضاء على الجيش الإنكشاري واستبداله بجيش جزائري وبالفعل شرع في تنفيذ خطته، لكن مع الأسف مدة حكمه كانت قصيرة حيث احتفظته المنية احتفظته قبل إتمام مشروعه هذا الذي كان سيقبل الأمور في حالة نجاحه.

(33) Haedo: op, cit, p53.

Henri Delmas de Grammont : Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830, édition bouchène, 2002, p59.

(34) عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ص40.

(35)

(36) Henri Delmas de Grammont : op, cit, p 60.

(37) Haedo: Ibid, p 43

(38) أشار صاحب الزهرة النيرة لهاتين الحملتين وكيف انهزم الإسبان فيهما امام مقاومة الجزائريين، أنظر، محمد بن رقية التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، ص ص 15-16.

(39) Fray Diego de Haedo: op, cit, p23.

(40) أنظر:

Marmo Carjaval Louis del : **l'Afrique de Marmol**, trad par Nicolas Pérot et sieur d'Abblancourt, Paris, 1667, T2, LV, p417-418.

د/لخضر بوطبة. . . . الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الـ16م

- (41) المدني (أحمد توفيق): محمد عثمان باشا داي الجزائر (1791-1766)، م، و، ك، الجزائر، 1986.
- (42) تولى الحكم بعد وفاة فرديناند عام 1516 وتنازل عنه عام 1556 متأثراً بخسارة قلعة بجاية عام 1555، خاض عدة حروب توسعية في أوروبا منذ توليه الحكم.
- (43) محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص 17.
- (44) محمد بن محمد التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، ص ص 15-16.
- (45) مولاي بلحميسي: غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر 1541-948، بين المصادر الغربية والمصادر الإسلامية، مجلة الأصالة، 1972، ص ص 91-111.
- (46) أنظر غزوات عروج وخير الدين.
- (47) لمزيد من التفاصيل حول هذه الحملة أنظر، مولاي بلحميسي: غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر، في مجلة الأصالة، الجزائر، 1974، ص 109. وكذلك، محمد بن رقية التلمساني: الزهرة النيرة في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة.
- (48) عبد الجليل التميمي: المرجع نفسه، ص 41.
- (49) مولاي بلحميسي: المرجع السابق ص 110.